وجاء الحق سبحانه بكل ما سبق ؛ لأنه سبحانه قد شاء أن يعطى لقريش فرصة التراجع فى عنادها للرسول ﷺ ، هذا العناد الذى قالوا فيه : إنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ، وهذا قول مغلوط ؛ لأن الآباء فى الأصل كانوا مؤمنين ، ولكن جاءهم الضلال كأمر طارىء ، والأصنام التى عبدوها طارئة عليهم من الروم ، جاء بها إنسان ممن ساحوا فى بلاد الروم هو «عمرو بن لحىّ»[1] ، فإن رجعتم إلى الإيمان بعد عنادكم ؛ فهذا هو الطريق المستقيم الذى كان عليه آباؤكم بالفطرة والميثاق الأول .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمة جاءت مرحلة من مراحل إخبار الله سبحانه وتعالى عن المعاندين لدعوة الإسلام ، التى بدأها الحق سبحانه بأنه قد رحمهم فأجّل لهم استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر ، ولو أنه أجابهم إلى ما دَعَوْا به على أنفسهم من الشر فى قولهم : ﴿ **إن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ..(٣٢) ﴾ [الأنفال]

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١ / ٧٧) أن عمرو بن لحىّ خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنماً ، فأسير به إلى أرض العرب ، فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له هُبَل ، فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

لقضى أمرهم . فمن رحمة الله تعالى أنه لم يُجِبْهم إلى دعائهم .

وإذا كان الله سبحانه قد أجَّل استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر رحمة بهم ، فيجب أن يعرفوا أن تأجيل استجابتهم بدعاء الخير رحمة بهم أيضاً ؛ لأنهم قد يدعون بالشر وهم يظنون أنهم يدعون بالخير ، وبعد ذلك دلَّل على كذبهم في دعائهم على أنفسهم بالشر بأنهم إذا مسَّهم ضرٌّ دعوا الله تعالى مضطجعين [1] وقاعدين وقائمين .

فلو كانوا يحبون الشر لأنفسهم ؛ لظلوا على ما هم فيه من البلاء إلى أن يقضى الله تعالى فيهم أمراً .

ثم عرض سبحانه قضية أخرى ، وهي أنه سبحانه إذا مسهم بضر ؛ ليعتبروا ، جاء الله سبحانه برحمته ؛ لينقذهم من هذا الضر . فياليتهم شكروا نعمة الله تعالى في الرحمة من بعد الضر ، ولكنهم مرُّوا كأن لم يدعوا الله سبحانه إلى ضر مسَّهم .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، يصور لنا الحق سبحانه وضعاً آخر ، هو وضع السير في البر والبحر ، فيقول: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. (٢٢)﴾ . [يونس]

وكلمة ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ تدل على أن الذي يسيِّر هو الله ، ولكن في القرآن آيات تثبت أن السير يُنسب إلى البشر حين يقول: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ .. (٦٩)﴾ . [النمل]

(١) الاضطجاع : الاستلقاء ووضع الجنب إلى الأرض . قال ابن المظفر : كانت هذه الطاء تاء في الأصل ، ولكنه قبح عندهم أن يقولوا (اضتجع) فأبدلوا التاءَ طاءً . قال تعالى : ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا .. (١٦)﴾ [السجدة] . [اللسان : مادة (ضجع)] .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ..(٢٩)﴾. [القصص]

وهو سبحانه يقول: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ..(١٨)﴾. [سبأ]

فكأن هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قد نسبت التسيير إلى الله سبحانه ، وبعض الآيات الأخرى نسبت التسيير إلى النفس الإنسانية ، ونقول لمن توهموا أن فى ذلك تعارضاً :

لو أنكم فطنتم إلى تعريف الفاعل عند النحاة [1] وكيف يرفعونه ؛ لعرفتم أن تحقق أى فعل إنما يعود إلى مشيئة الله سبحانه ، فحين نقول: «نجح فلان» فهل هو الذى نجح ، أم أن الذى سمح له بالنجاح غيره ؟ إن الممتحن والمصحِّح هما من سمحا له بالنجاح ؛ تقديراً لإجاباته التى تدل على بذل المجهود فى الاستذكار.

وكذلك نقول: «مات فلان» ، فهل فلان فعل الموت بنفسه ؟ خصوصاً ونحن نعرب «مات» كفعل ماض ، ونعرب كلمة (فلان) «فاعل» أو نقول: إن الموت قد وقع عليه و اتَّصفَ به ؛ لأن تعريف الفاعل : هو الذى يفعل الفعل ، أو يتّصف به.

وإذا أردنا أن ننسب الأشياء إلى مباشرتها السببية ؛ قلنا: «سار الإنسان».

وإذا أردنا أن نؤرِّخ لسير الإنسان بالأسباب ، وترحَّلنا به إلى الماضى ؛ لوجدنا أن الذى سيَّره هو الله تعالى.

وكل أسباب الوجود إنْ نظرتَ إليها مباشرة ؛ وجدتها منسوبة إلى من هو فاعل لها ؛ لكنك إذا تتبَّعتها أسباباً ؛ وجدتّها تنتسب إلى الله سبحانه.

---

(١) لأن تعريف الفاعل عند النحاة هو : كل اسم مرفوع سبقه فعل متعد أو لازم ، وهذا الاسم هو الذى فعل الفعل أو قام به أو اتصف به ، مثل : قرأ محمد الكتاب ، ونجح محمد ، وأثمرت الشجرة .

فمثلاً : إذا سُئلت : مَنْ صنع الكرسى ؟ تجيب : النجار . وإنْ سألت النجار : من أين أتيت بالخشب ؟ سيجيبك : مِن التاجر . وسيقول لك التاجر أنه استورده من بلاد الغابات ، وهكذا .

إذن : إذا أردت أن تسلسل كل حركة فى الوجود ؛ لا بد أن تنتهى إلى الله تعالى[1] .

وحين قال الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ[2] وَسَارَ بِأَهْلِهِ .. (٢٩) ﴾ [القصص]

نفهم من ذلك أن موسى - عليه السلام - قد سُيِّر بأهله ؛ لأن التسيير فى كل مقوماته من الله تعالى .

والمثال الآخر : نحن نقرأ فى القرآن قوله الحق : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) ﴾ [النجم]

فهو سبحانه الذى خلق الضحك ، وخلق البكاء .

فنجد من يقول : كيف يقول الله سبحانه إنه خلق الضحك والبكاء وهو الذى يقول فى القرآن : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. (٨٢) ﴾ [التوبة]

ونقول : أنت إن نظرت إلى القائم بالضحك ، فهو الإنسان الذى ضحك ، وإن نظرت إلى من خلق غريزة الضحك فى الإنسان ؛ تجده الله سبحانه .

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ .. (٢) ﴾ [الرعد] ويقول سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ .. (١٢٣) ﴾ [هود] .

(٢) وذلك أن شعيباً قال لموسى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ .. (٢٧) ﴾ [القصص] . فقال له موسى : ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ [القصص] ، وقد ثبت فى الحديث أن موسى عليه السلام قضى الأجل الأتم والأكمل وهو عشر سنين (ابن كثير : ٣/ ٣٨٤ - ٣٨٧).

وغريزة الضحك موجودة باتفاق شامل لكل أجناس الوجود ، وكذلك البكاء فلا يوجد ضحك عربى ، وضحك انجليزى ، ولا يوجد بكاء فرنسى ، أو بكاء روسى .

إذن : فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الضحك والبكاء .

وقد صدق قوله الحق : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم]

لكن الضاحك والباكى يقوم به الوصف . وكذلك قوله الحق : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. ﴿١٧﴾ ﴾ . [الأنفال]

فقد شاء الحق سبحانه أن يمكن رسوله ﷺ بالبشرية أن يرمى الحصى ، ولكن إيصال الحصى لكل فرد فى الجيش المقابل له ، فتلك إرادة الله [(١)] .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ . لا يتعارض مع أنهم هم الذين يسيرون ، وأنت إذا علّلت السير فى الأرض أو فى البحر ؛ ستجد أن السير هو انتقال السائر من مكان إلى مكان ، وهو يحدِّد غاية السير بعقله ، والأرض أو البحر الذى يسير فى أى منهما بأقدامه أو بالسيارة أو بالمركب ، هذا العقل خلقه الله تعالى ، والأرض كذلك ، والبحر أيضاً ، كلها مخلوقات خلقها الله سبحانه وتعالى . وأنت حين تحرِّك ساقيك ؛ لتسير ، لا تعرف كيف بدأت السير ولا كَمْ عضلة تحركت فى جسدك ، فالذى أخضع كل طاقات جسمك لمراد عقلك هو الله تعالى .

إذن : فكل أمر مرجعه إلى الله سبحانه .

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما : رفع رسول الله ﷺ يديه يعنى يوم بدر فقال : «يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً» فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين . أخرجه أبو نعيم (ص ٤٠٤) والبيهقى (٣/ ٧٩) كلاهما فى دلائل النبوة ، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٩٤) .

وهنا ملحظ فى السير فى البر والبحر ، فكلاهما مختلف ، فالإنسان ساعة يسير فى الأرض على اليابسة ، قد تنقطع به السبل ، ويمكنه أن يستصرخ [١] أحداً من المارة، أو ينتظر إلى أن يمر عليه بعض المارة؛ ليعاونه.

أما المرور فى البحر ؛ فلا توجد به سابلة أو سالكة [٢] كثيرة ؛ حتى يمكن للإنسان أن يستصرخهم.

إذن : فالمرور فى البحر أدق من المرور فى البر ؛ ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول عن السير فى البحر : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) ﴾ [يونس]

وهكذا لا نجد أن فى الآية نفسها حديثاً عن السير فى البر ؛ لأن الحق سبحانه ما دام قد تكلم عن إزالة الخطر للمضطر فى البحر ، فهذا يتضمن إزالته عمن يسير فى البر من باب أولى . وإذا ما جاء الدليل الأقوى ، فهو لا بد أن ينضوى [٣] فيه الدليل الأقل .

ومثال هذا قول الحق سبحانه :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا .. (١٥) ﴾ . [الأحقاف]

وجاءت كل الحيثيات بعد ذلك للأم ، ولم يأت بأى حيثية للأب ،

---

(١) يستصرخ : يصرخ طالباً النجدة . والصرخة : الصيحة الشديدة عند الفزع أو المصيبة . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ .. (١٨) ﴾ [القصص] . وقال : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) ﴾ [يس] . والصريخ : المغيث . [اللسان : مادة (صرخ) . بتصرف] .

(٢) سبيل سابلة : طريق مسلوكة . والسابلة : أبناء السبيل المختلفون على الطرقات فى حوائجهم ، والجمع : السوابل . والسلوك : مصدر سلك طريقاً ومن يسلكون طريقاً فهم سالكة . قال تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا .. (٥٣) ﴾ [طه] . [اللسان : مادة (سبل) ، (سلك)] .

(٣) ضَوَى إليه : انضم ولجأ . وينضوى فى الشىء : يدخل فيه ويندرج تحته . [اللسان : مادة (ضوا) . بتصرف] .

فيقول : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ [1] ثَلاثُونَ شَهْرًا (١٥)﴾ [الأحقاف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن حيثية الأم مبنية على الضعف ، فيريد أن يرقق قلب ابنها عليها ، فالأب رجل ، قد يقدر على الكدح فى الدنيا ، كما أن فضل الأب على الولد يدركه الولد ، لكن فضل أمه عليه وهو فى بطنها ؛ لا يعيه ، وفى طفولته الأولى لا يعى أيضاً هذا الفضل . ولكنه يعى من بعد ذلك أن والده يحضر له كل مستلزمات حياته ، من مأكل وملبس ، ويبقى دور الأم فى نظر الطفل ماضياً خافتاً .

إذن : فحيثية الأم هى المطلوبة ؛ لأن تعبها فى الحمل والإرضاع لم يكن مُدْركاً من الطفل .

وكذلك هنا فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، ترك الحق سبحانه حيثية البر وأبان بالتفصيل حيثية البحر :

﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ [2] (٢٢)﴾ [يونس]

---

(١) الفصال : الفطام . والمعنى : أن مدى حمل المرأة إلى منتهى الوقت الذى يُفصل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً ، وفصلت المرأة ولدها أى : فطمته . وقال تعالى : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ .. (١٤)﴾ [لقمان] . وقال تعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ .. (٢٣٣)﴾ [البقرة] . [اللسان : مادة (فصل) - بتصرف] . وقد استنبط العلماء من هذا أن أقل مدة للحمل هى ستة أشهر ، وقد حدث أن امرأة رفع أمرها إلى على بن أبى طالب وأنها حملت ستة أشهر واتهمها زوجها بالزنا ، وبرَّأها على استدلالاً بالجمع بين هذه الآيات . وهو مذهب الجمهور [فقه السنة : ٣/ ٣٦٧] .

(٢) الفلك : السفينة للمذكر والمؤنث والواحد والجمع ، قال تعالى : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩)﴾ [الشعراء] جعله مفرداً ومذكراً ، أى : المركب ؛ وقال : ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. (١٤)﴾ [النحل] جعل الفلك جمعاً ووصفه بقوله : (مواخِر) أى : السفن . القاموس القويم (٢/ ٨٩) .

وكلمة (الفلك) تأتي مرة مفردة ، وتأتي مرة جمعاً ، والوزن واحد في الحالتين ومثال هذا أنه حين أراد الله سبحانه أن ينجي نوحاً عليه السلام ، وأن يغرق الكافرين به ، قال لسيدنا نوح : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٣٧) ﴾ . [هود]

إذن : هي تطلق على المفرد ، وعلى الجمع ، ولها نظائر في اللغة في كلتا الحالتين ، فهي في الإفراد تكون مثل : قُفْل ، وقُرْط . وعند الجمع تكون مثل : أُسْد .

والحق سبحانه وتعالى يصف الريح هنا بأنها طيبة ، والقرآن الكريم من طبيعة أسلوبه حين يتكلم عن الريح بلفظ الإفراد يكون المقصود بها هو العذاب ، مثل قوله الحق : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. (٢٥) ﴾ . [الأحقاف]

وإن تكلم عنها بلفظ الجمع فهي للرحمة ، وسبحانه القائل :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ (١) .. (٢٢) ﴾ . [الحجر]

ويقول سبحانه أيضًا:

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. (٥٧) ﴾ . [الأعراف]

---

(١) لواقح : حوامل ؛ لأنها تحمل الماء والسحاب وتقلّبه وتصرّفه ، ثم تستدره ، فهي تلقح السحاب بالماء فيدر ماء وينزل المطر وتلقح الشجر فتعطي نتاجها . [لسان العرب : مادة : (لقح)] وابن كثير (٢/ ٥٤٩).

والرياح هنا جاءت فى صيغة الجمع ، وعلّة وجود ريح للشر [1] ، ورياح للخير ، يمكنك أن تستشفها من النظر إلى الوجود كله ؛ هذا النظر يوضح لك أن الهواء له مراحل ، فهواء الرُّخَاء هو الذى يمر خفيفاً ، مثل النسيم العليل ، وأحياناً يتوقف الهواء فلا تمر نسمة واحدة ، ولكننا نتنفس الهواء الساكن الساخن أثناء حرارة الجو ، ثم يشتد الهواء أحياناً ؛ فيصير رياحاً قوية بعض الشىء ، ثم يتحول إلى أعاصير.

والهواء - كما نعلم - هو المقوِّم الأساسى لكل كائن حى ، ولكل كائن ثابت غير حى ، فإذا كان الهواء هو المقوم الأساسى للنفس الإنسانية ، فالعمارات الضخمة - مثل ناطحات السحاب - لا تثبت بمكانها إلا نتيجة توازن تيارات الهواء حولها ، وإن حدث تفريغ للهواء تجاه جانب من جوانبها ؛ فالعمارة تنهار.

إذن: فالذى يحقق التوازن فى الكون كله هو الهواء.

ولذلك نجد القرآن الكريم قد فصّل أمر الرياح وأوضح مهمتها ، وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ وكأنه سبحانه يتكلم هنا عن السفن الشراعية التى تسير بالهواء المتجمِّع فى أشرعتها. وإذا كان التقدم فى صناعة السفن قد تعدَّى الشراع ، وانتقل إلى البخار ، ثم الكهرباء ، فإن كلمة الحق سبحانه: ﴿رِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ تستوعب كل مراحل الارتقاء ، خصوصاً وأن كلمة «الريح» قد وردت فى القرآن الكريم بمعنى القوة أيا كانت: من هواء ، أو محرك يسير بأية طاقة. وسبحانه

(١) ومن الريح ما يسخره الله ويجعله ريح خير ، مثل قوله تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾[ص] والريح الرخاء هى: الريح اللينة السريعة التى لا تزعزع شيئاً من مكانه. انظر [اللسان مادة (رخو)].

القائل: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ[1] .. ﴿٤٦﴾﴾. [الأنفال]

وهكذا نفهم أن معنى الريح ينصرف إلى القوة. وأيضاً كلمة «الريح» تنسجم مع كل تيسيرات البحر.

وقوله الحق: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ هذا القول الكريم يضم ثلاثة وقائع: الوجود فى الفُلْك، وجرى الفُلْك بريح طيبة، ثم فرحهم بذلك؛ هذه ثلاثة أشياء جاءت فى فعل الشرط، ثم يأتى جواب الشرط وفيه ثلاثة أشياء أيضاً:

أولها: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ وثانيها: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وثالثها: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾.

أما الريح العاصف: فهى المدمرة، ويقال: فلان يعصف بكذا، وفى القرآن: ﴿كَعَصْفٍ[2] مَّأْكُولٍ ..﴿٥﴾﴾. [الفيل]

إذن: ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ هى الريح المدمِّرة المغرقة. وقوله الحق: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾.

فالموج يأتى من أسفل، والريح تأتى من أعلى، وترفع الريح الموج فيدخل الموج إلى المركب، ونعلم أنهم يقيسون ارتفاع الموج كل يوم حسب

(١) أى: قوتكم، فالريح هنا معناها القوة وذهاب الريح أى: ذهاب القوة والهيبة، فالقوة هى التوازن فى الحياة، ، إن استعملت بأخلاق عادت على الإنسانية بالخير والسلام، أما إذا تجردت من الأخلاق أصبحت طغياناً وفساداً فى الأرض وفيما حكاه التاريخ ونشاهده فى دنيا الواقع لأكبر دليل. وقد تطلق على الرائحة، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف]، وهذا يخدم معنى القوة أيضاً، فإن من ذهبت رائحته من الوجود، فهذا دليل على ذهاب قوته.

(٢) العصف المأكول: التبن. والعصف له معنيان:
- أنه جعل أصحاب الفيل كورق أخذ ما فيه من الحَبّ وبقى هو لا حَبّ فيه.
- أو أراد أنه جعلهم كعصف قد أكلته البهائم. [اللسان (مادة: عصف)].

قوة الريح ، فحين تكون الريح خفيفة ؛ يظهر سطح مياه البحر مجعّداً [(1)] ، وحين تكون الريح ساكنة ؛ فأنت لا تجد صفحة المياه مجعدة ، بل مبسوطة ، وقد جاءتهم الريح عاصفاً فيزداد عنف الموج ، ويتحقق نتيجة لذلك الظن بأنهم قد أحيط بهم.

ومعنى الإحاطة هو عدم وجود منفذ للفرار ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يتكلم عن الكافرين بقوله : ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ..(١٩)﴾ . [البقرة]

أي: ليس هناك منفذ يفلتون منه.

ولحظة ظنهم أنه قد أحيط بهم ؛ لا يسلمون أنفسهم لهذه الحالة ؛ بدعوى الاعتزاز بأنفسهم غريزياً ، بل يتجهون إلى الله بالدعاء ، هذا الإله الذى أنكروه ، لكنهم لحظة الخطر لا يكذب أحد على نفسه أو يخدعها [(2)] .

ولذلك نجد سيدنا جعفر الصادق يجيب على سائل سأله: أهناك دليل على وجود الصانع الأعلى ؟ فيقول سيدنا جعفر: ما عملك ؟ فيجيب السائل: تاجر أبحر فى البحر. فسأله سيدنا جعفر: أوَلم يحدث لك فيه حال ؟ قال الرجل : بل حدث . فسأل سيدنا جعفر :ما هو ؟ قال: حملت بضائعى فى سفينة ، فهبت الريح وعلا الموج وغرقت السفينة وتعلقت بلوح من الخشب. قال سيدنا جعفر: ألم يخطر على بالك أن تفزع إلى شيء ؟ قال الرجل: نعم. قال سيدنا جعفر: هذا الصانع الأعلى.

وكذلك لجأ هؤلاء الذين كفروا بالله إلى الله تعالى حين عصفت بهم الريح ، وعلا عليهم الموج ، وظنوا أنهم قد أحيط بهم ويقول الحق سبحانه

---

(١) المراد بتجعُّد سطح الماء: التموجات التى تبدو على سطح المياه إذا هبّ عليها الهواء.

(٢) لأن فطرة الميثاق الأول تستجيب للإنسان عند الحاجة وعند إيضاح الحقيقة يقول الحق : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥)﴾ [لقمان] ، فهذا القول نابع من الفطرة التى غابت عنهم فى زحمة العناد ، ويظهر ذلك جلياً عند حدوث الأخطار .

وتعالى عنهم - وهم فى مثل هذه الحالة: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا يعنى أنهم لم يدعوه فقط ، بل دَعَوْه بإخلاص وأقروا بوحدانيته ، وألاّ شريك له أبداً ؛ لأنهم يعلمون أن مثل هذا الشريك لن ينفعهم أبداً.

ثم يجيء الحق سبحانه بصيغة دعائهم: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فهل وَفَّوْا بالعهد؟ لا ؛ لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك:

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

وبعد أن أنجاهم الحق سبحانه مباشرة تأتى «إذا» الفجائية لتوضح لنا أنهم لم ينتظروا إلى أن يستردوا أنفاسهم ، أو تمر فترة زمنية بينهم وبين الدعاء ، وتحقق نتيجة الضراعة ، لا ، بل بغوا [1] - على الفور - فى الأرض ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

والبغى: هو تجاوز الحدّ فى الظلم وهو إفساد ؛ لأن الإنسان إذا ما أخرج أى شيء عن صلاحه ، يقال: «بغى عليه» ، فإن حفرت طريقاً مُمهّداً ؛ فهذا إفساد ، وإنْ ألقيت بنفاية [2] فى بئر يشرب منه الناس ؛ فهذا إفساد وبغى ، وأى شيء قائم على الصلاح فتخرجه عن مهمته وتطرأ عليه بما يفسده ؛ فهذا بغى.

---

(١) البَغْى: الظلم والفساد والكِبْر والاستطالة على الناس والإيذاء والجور وأصل البغى: مجاوزة الحدّ. قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ .. ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى]. وقال: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي .. ﴿٩﴾﴾ [الحجرات]. [اللسان: مادة (بغى) - بتصرف].

(٢) نفاية الشيء: بقيته وأردؤه. والنفاية: ما نفيته من الشيء لرداءته. والمراد بالنفاية هنا: الفضلات وكل ما من شأنه تلويث الشيء وإفساده. [اللسان: مادة (نفى). بتصرف].

والبغى: أعلى مراتب الظلم؛ لأن الحق سبحانه هو القائل: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ .. ﴿٧٦﴾﴾. [القصص]

ويعطينا رسول الله ﷺ صورة البغى الممثَّلة فى الاعتداء بالفساد على الأمر الصالح، فيقول ﷺ: «أسرع الخير ثواباً: البِرّ وصلة الرحم، وأسرع الشر عقوبة: البغى وقطيعة الرحم»[(١)].

والحق سبحانه لا يؤخر عقاب البغى وقطيعة الرحم إلى الآخرة، بل يعاقب عليهما فى الدنيا؛ حتى يتوازن المجتمع؛ لأنك إن رأيت ظالماً يحيا فى رضاً ورخاء ثم يموت بخير، فكل مَنْ يراه ويعلم ظلمه ولم يجد له عقاباً فى الدنيا، سوف يستشرى فى الظلم.

ولذلك تجد أن عقاب الله تعالى لمثل هذا الظالم فى الدنيا وأن يُرِى الناس نهايته السيئة، وحين يرى الناس ذلك يتعظون؛ فلا يظلمون، وهذا ما يحقق التوازن فى المجتمع.

وإلا فلو ترك الله سبحانه الأمر لجزاء الآخرة؛ لشقى المجتمع بمن لا يؤمنون بالآخرة ويحترفون البغى؛ ولذلك يرى الناس عذابهم فى الدنيا، ثم يكون لهم موقعهم من النار فى الآخرة.

ويقول ﷺ محذراً: «لا تَبْغِ، ولا تكُنْ باغياً»[(٢)].

فالباغى إنما يصنع خللاً فى توازن المجتمع. والذى يبغى إنما يأخذ حق الغير، ليستمتع بناتج من غير كدِّه وعمله، ويتحوّل إلى إنسان يحترف

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢١٢) وابن عدى فى الكامل (٤/ ٧٠) ط. دار الفكر، والذهبى فى ميزان الاعتدال (ت ٣٨٣١) من حديث عائشة، كلاهما فى ترجمة صالح بن موسى الطلحى، وهو كوفى ضعيف. وقال ابن عدى: لا يتعمد الكذب. وسياق نص الحديث يؤخذ به.

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٢/ ٣٣٨) عن أبى بكرة، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وأقره الذهبى.

فرض الإتاوات [1] على الناس ، ويكسل عن أى عمل غير ذلك . وأنت ترى ذلك فى أبسط المواقع والأحياء ، حين يحترف بعض ممن يغترون بقوتهم الجسدية ، وقد تحولوا إلى (فتوات) [2] يستأجرهم البعض لإيذاء الآخرين ، والواحد من هؤلاء إنما احترف الأكل من غير بذل جهد فى عمل شريف .

والبغى - إذن - هو عمل مَنْ يفسد على الناس حركة الحياة ؛ لأن من يقع عليهم ظلم البغى ، إنما يزهدون فى الكَدِّ والعمل الشريف الطاهر . وإذا ما زهد الناس فى الكَدِّ والعمل الشريف ؛ تعطلت حركة الحياة ، وتعطلت مصالح البشر ، بل إن مصالح الظالم نفسها تتعطل ؛ ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ..(٢٣)﴾ . [يونس]

ولقائل أن يسأل : وهل هناك بَغْى بحق ؟

أقول : نعم ؛ لأن البغى اعتداء على الصالح بإفساد . وأنت ساعة ترى إنساناً يفسد الشيء الصالح ، فتسأله : لماذا تفعل ذلك ؛ وقد يجيبك بأن غرضه هو الإصلاح ، ويُعدِّد لك أسباباً لهذا البغى ، فهذا بغى بحق ، أما إن كان بغياً بدون سبب شرعى فهذا هو البغى ، بل قمته .

ومثال البغى بحق ، أقول : ألم يَسْتَولِ النبى ﷺ على أرض «بنى قريظة» ، وأحرق زرعهم وقطع الأشجار فى أراضيهم ، وهدم دورهم؟ أليس فى ذلك اعتداء على الصالح ؟

---

(١) إتاوات : جمع إتاوة وهى قدر من المال يُدْفع غصباً وإجباراً - بدون وجه حق - إلى ذوى السطوة والتسلُّط . وهى تشبه المكوس .

(٢) هذا لفظ يستعمله الناس لكل إنسان منحرف ليتخذ من قوته تهديداً للأمن والسطو على ممتلكات الناس وتخويف الناس . وفى لغة العرب : الْفَتَىّ : هو الشاب القوى والفتى : العبد ، وجمعه على القلة فتية . وفى الكثرة فتيان ، والأمة : فتاة ، وجمعها فتيات . والفتوة عرفت عند العرب بأهل النجدة والعون والاحتساب ، ولكن هذه الكلمة أطلقت على كل منحرف ومحترف الإفساد .

لقد فعل رسول الله ﷺ ذلك ؛ لأنه ردّ على عدوان أقسى من ذلك.

وهكذا نرى أن هناك بغياً بحق ، وبغياً بغير حق. ولذلك يسمي الله جزاء السيئة سيئة مثلها [1] ، ويقول سبحانه: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة]

ويسميه الحق سبحانه «اعتداء» رغم أنه ليس اعتداء، بل ردّ الاعتداء.

ويطلقها الحق سبحانه وتعالى قضية تظل إلى الأبد بعد ما تقدم ، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٢٣﴾﴾

[يونس]

وهنا يبين الله سبحانه وتعالى وكأنه يخاطب الباغي: يا مَنْ تريد أن تأخذ حق غيرك ، اعلم أن قصارى [2] ما يعطيك أخذ هذا الحق هو بعض من متاع الدنيا ، ثم تجازى من بعد ذلك بنار أبدية [3].

وأنت إن قارنت زمن المتعة المغتصبة الناتجة عن البغي بزمن العقاب عليها ؛ لوجدت أن المتعة رخيصة هينة بالنسبة إلى العقاب الذى سوف تناله عليها ولا تأخذ عمرك فى الدنيا قياساً على عمر الدنيا نفسها ؛ لأن الحق سبحانه قد يشاء أن يجعل عمر الدنيا عشرين مليوناً من السنوات ، لكن عمرك فيها محدود.

---

(١) وذلك فى نحو قوله تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ..﴿٤٠﴾﴾ [الشورى] . وهذا من قبيل المشاكلة ، وهو مصطلح بلاغى مؤداه ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، فالجزاء هنا حق لا يوصف بأنه سيئة ، ولكنه سمى هكذا لمشاكلته لما معه. انظر (الإتقان فى علوم القرآن ٣ / ٢٨١).

(٢) قصارى الشىء: آخره وغايته وهى من معنى القصر ، أى: الحبس ؛ لأنك إذا بلغت الغاية حبستك. [اللسان: مادة (قصر) - بتصرف].

(٣) ومن أمثلة الغصب والبغى بغير الحق ما رواه ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله ، أىّ الظلم أعظم؟ قال: «ذراع من الأرض ينتقصها المرء المسلم من حق أخيه ، فليس حصاة من الأرض يأخذها أحد إلا طوقها يوم القيامة إلى قعر الأرض ، ولا يعلم قعرها إلا الذى خلقها». أخرجه أحمد فى مسنده (١ / ٣٩٦) والطبرانى فى معجمه الكبير (١٠ / ٢٦٦). قال الهيثمى فى المجمع (٤ / ١٧٤): «إسناد أحمد حسن».

فاربأوا [1] على أنفسكم وافهموا أن متاع الدنيا قليل ، إن كان هذا المتاع نتيجة ظلمكم لأنفسكم ؛ لأن نتيجة هذا الظلم إنما تقع عليكم ؛ لأن مقتضى ما يعطيكم هذا الظلم من المتعة والنعمة هو أمر محدود بحياتكم فى الدنيا ، وحياتكم فيها محدودة ، ولا يظن الواحد أن عمره هو عمر البشرية فى الدنيا ، ولكن ليقسْ كل واحد منكم عمره فى الدنيا وهو محدود.

ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ..(٧٧)﴾ [النساء]

وهنا يؤكد الحق سبحانه : ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم (٢٣)﴾ [يونس]

وقد يتمثل جزاء البغي فى أن يشاء الحق سبحانه ألا يموت الظالم إلا بعد أن يرى مظلومه فى خير مما أخذ منه ؛ ولذلك أقول دائمًا: لو علم الظالم ما ادخره الله للمظلوم منَ الخير ؛ لضنَّ عليه بالظلم.

وعلى فرض أن الظالم يتمتع بظلمه وهو من متاع الدنيا القليل ، نجد الحق سبحانه يقول: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ..(٢٣)﴾ [يونس]

وحين نرجع إلى الله تعالى فلا ظلم أبداً ؛ لأن أحدكم لن يظلم أو يُظلم فكل منكم سوف يَلْقى ما ينبئه به الله سبحانه إنْ ثواباً أو عقاباً ؛ مصداقاً لقوله الحق: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم [2] بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)﴾ . [يونس]

وقد جاء الخبر عن نبأ الجزاء من قبل أن يقع ؛ ليعلم الجميع أن لكل فعل

(١) اربأوا على أنفسكم: حافظوا عليها وأبعدوها عن كل ما من شأنه أن يجلب لها العذاب فى الآخرة. وفى الحديث: «مثلى ومثلكم كرجل ذهب يربأ أهله» أى: يحفظهم من عدوهم. [اللسان مادة (ربأ)].

(٢) الأنباء : الأخبار الهامة . قال الحق : ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا .. (١٠١)﴾ [الأعراف] وقال : ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ .. (٦٧)﴾ [الأنعام] . أى : لكل خبر عام وقت أو مكان يقع فيه فى المستقبل أو فى الماضى . ونبأه مثل أنبأه . والتضعيف يفيد المبالغة والتكرار . قال الحق : ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ.. (١٤)﴾ [المائدة] - القاموس القويم جـ ٢ صـ ٢٥٠ ، ٢٥١

مقابلاً من ثواب أو عقاب ، كما أن في ذكر النبأ مقدَّماً تقريعاً لمن يظلمون أنفسهم بالبغى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا(١) وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

والماء الذى ينزل من السماء ، هو الماء الصالح للرى وللسقى ؛ لأن المياه الموجودة فى الوجود ، هى مخازن للحياة ، وغالباً ما تكون مالحة ، كمياه البحار والمحيطات، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لحمايتها من العفن والفساد، ثم تتم عملية تقطير المياه بأشعة الشمس التى تحوّل الماء إلى بخار، ويتجمع البخار كسحاب، ثم يسقط ماء عَذْباً مقطراً صالحاً للشرب والرّى .

---

(١) الزخرفة : الزينة . قال ابن سيده : الزخرف : الذهب ، هذا الأصل ، ثم سُمّى كل مموّه مزوَّر به . وبيت مزخرف . وزخرف البيت : زيَّنه وأكمله . وفى الحديث : أن النبى ﷺ لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فنُحِّىَ . وقوله تعالى : ﴿إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس] المراد بالزخرف هنا : زينة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل الذى يخدع بريقه أعين الغافلين عن الآخرة وما فيها من نعيم مقيم . [اللسان : مادة (زخرف) - بتصرف] . وقال القرطبى : زخرفها ، أى : حُسنها وزينتها . والزخرف : كمال حسن الشيء ومنه قيل للذهب زخرف (تفسير القرطبى : ٤/ ٣٢٥٤) . وقال ابن كثير : زخرفها ، أى : زينتها الفانية . وازيّنت ، أى : حَسُنت بما خرج فى رُباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان (تفسير ابن كثير : ٢ / ٤١٣) .

والحق سبحانه يقول هنا: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس]

والاختلاط: اجتماع شيئين أو أشياء على هيئة الانفصال بحيث يمكن أن تعزل هذا عن ذاك ، فإن خلطت بعضاً من حبات الفول مع بعض من حبّات الترمس ؛ فأنت تستطيع أن تفصل أيا منهما عن الأخرى ، ولكن هناك لوناً آخر من جمع الأشياء على هيئة المزج ، مثلما تعصر ليمونة على ماء محلّى بالسكر ، وهذا ينتج عنه ذوبان كل جزيء من الليمون والسكر فى جزيئات الماء.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ وقد يُفهم من ذلك أن الماء والنبات قد اختلطا معاً ، لكن النبات - كما نعلم - ككائن حى مخلوق من الماء مصداقاً لقول الحق سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء]

وهنا لا بد أن نلتفت إلى الفارق بين «باء» الخلط ، و«باء» السببية [1] فالباء هنا فى هذه الآية هى باء السببية ، وبذلك يكون المعنى: فاختلط بسببه نبات الأرض. وأنت ترى بعد سقوط المطر على الأرض أن المياه تغطى الأرض ، ثم تجد بعد ذلك بأيام أو أسابيع ، أن سطح الأرض مغطى بالزروع ، وكلها مختلطة متشابكة ، وكلما تشابكت الزروع مع بعضها فهذا دليل على أن الرى موجود والخصوبة فى هذه الأرض عالية، وهذا نتيجة تفاعل الماء مع التربة.

(١) الباء: حرف يجر الاسم الظاهر والمضمر ، ويقع أصلياً أو زائداً ، ويؤدى عدّة معان ، أشهرها خمسة عشر ، هى: الإلصاق ، والاستعانة ، والسببية ، والتعدية ، والظرفية ، والعوض ، والمصاحبة ، والتبعيض ، والمجاوزة ، والاستعلاء ، والتوكيد ، وأن تكون بمعنى كلمة (بدل) ، وأن تكون بمعنى كلمة (إلى) . انظر تفصيل ذلك فى النحو الوافى (٢/ ٤٩٠ - ٤٩٧).

أما إن كانت الأرض غير خصبة ، فأنت تجد نَبْتة فى منطقة من الأرض ، وأخرى متباعدة عنها ، وهذا ما يطلق عليه أهل الريف المصرى أثناء زراعة الذرة - على سبيل المثال : «الذرة تفلس» أى: أن كل عود من أعواد الذرة يتباعد عن الآخر نتيجة عدم خصوبة الأرض.

إذن: فخصوبة الأرض لها أساس هام فى الإنبات والماء موجود لإذابة عناصر الغذاء للنبات ، فتنتشر بها جذور النبات.

وإن سمحتْ لك الظروف بزيارة المراكز العلمية للزراعة فى «طوكيو» أو «كاليفورنيا» ؛ فلسوف ترى أنهم يزرعون النباتات على خيوط رفيعة ؛ تُسقى بالماء الذى يحتوى على عناصر الغذاء اللازمة للإنبات ؛ لأنهم وجدوا أن أى نبات يأخذ من الأرض المواد اللازمة لإنباته بما لا يتجاوز خمسة فى المائة من وزنه ، ويأخذ من الهواء خمسة وتسعين فى المائة من وزنه .

إذن: فالمطر النازل من السماء خلال الهواء هو الذى يذيب عناصر الأرض ؛ ليمتصها النبات.

والحق سبحانه وتعالى هنا أراد أن يضرب لنا المثل ، والمثل: هو قول شُبِّه مَضْربُهُ بمَوْلده ، أى : شيء نريد أن نمثله بشيء ، ولا بد أن يكون الشيء الممثَّل بهِ معلوَماً ، والشيء المأخوذ كمثل هو الذى نريد أن نوضح صورته ؛ ولذلك لا يصح أن نمثل مجهولاً بمجهول ، وإنما نمثل مجهولاً بمعلوم.

وتجد من يقول لك: ألا تعرف فلاناً ؟ فتقول: لا أعرفه ، فيرد عليك صاحبك: إنه مثل فلان فى الشكل. وهكذا عرَّفْتَ المجهول بمعلوم.

وبعض من الذين يحاولون الاعتراض على القرآن ، دخلوا من هذه الناحية ، وقالوا: إذا كان الشيء مجهولاً ونريد أن نعرِّف به ، ألا نعرِّفه

بمعلوم ؟ فما بال الله – سبحانه وتعالى – يقول فى شجرة الزقوم [1] : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا [2] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الصافات]

ما بال الله سبحانه يبين شجرة الزقوم ، وهى شجرة فى النار لا نعرفها ، فيعرِّفها للمؤمنين به بأن طلعها يشبه رءوس الشياطين ، وبذلك يكون سبحانه قد مثَّل مجهولاً بمجهول . والذين قالوا ذلك فاتهم أن الذى يتكلم هو الله تعالى . وقد أراد الحق سبحانه أن يُمثِّل لنا شجرة الزقوم بشىء بشع معلوم لنا ، والبشع المعلوم هو الشيطان .

وشاء الحق سبحانه ألا يحدد البشاعة ؛ حتى لا ينقضى التشبيه ؛ لأن الشىء قد يكون بشعاً فى نظرك ، وغير بشع فى نظر غيرك . ويريد الله سبحانه أن يبشع طلع شجرة الزقوم ؛ فاختار الشىء المتفق على بشاعته ، وهو رءوس الشياطين ، وليتصور كل إنسان صورة الشيطان ، بما ينفر منه ويقبِّحه ، وهكذا تتجلَّى عظمة الحق سبحانه فى أن جعل شكل الشيطان مبهماً [3] .

وأما المثل الذى نحن بصدده هنا وهو تشبيه الحياة الدنيا بأنها كالماء الذى أنزله الحق سبحانه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، والحياة الدنيا نحن ندرك بعضها ، وكلٌّ منا يدرك فترة منها ، ولم يدرك أولها ، وقد لايدرك آخرها ، فجاء الحق سبحانه بمثل يراه كل واحد منا ، وهو الزرع

---

(١) شجرة الزقوم هى الشجرة الملعونة فى القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الإسراء] وأخبر الله تعالى فى كتابه الكريم أنها تخرج فى أصل الجحيم . وثمرها هو الزقوم وهو طعام أهل النار . [اللسان : مادة (زقم) – بتصرف] .

(٢) الطلع : غلاف يشبه الكوز ، ينفتح عن حَبٍّ منضود ، فيه مادة إخصاب النخلة [المعجم الوسيط : مادة (طلع)] .

(٣) مبهماً : خافياً . واستبهم الأمر إذا استغلق . والمبهم سمى كذلك لأنه أبهم عن البيان فلم يُجعل عليه دليل . ومنه قيل لما لا ينطق «بهيمة» [اللسان : مادة (بهم)] .

الذى يرتوى بالمطر ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع لنا صورة الدنيا فى مثل معروف لنا جميعاً ، وندركه جميعاً ؛ فندرك ما سبق ، وما يلحق ، فكلّ شىء يأخذ حظه فى الازدهار ، والجمال ، ثم ينتهى ، كذلك الدنيا.

يقول الحق سبحانه :

﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ (٢٤)﴾ [يونس]

والزخرف : هو الشىء الجميل المستميل للنفس وتُسرُّ به حينما تراه ، وتتزين الدنيا بالألوان المتنوعة فى تنسيق بديع ، ثم يصبح كل ذلك حصيداً [١] وهذا ما نراه فى حياتنا ، وهكذا جمع الله سبحانه وتعالى مثل الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها بالصورة المرئية لكل إنسان ، حتى لا يخدع إنسان بزخرف الدنيا ولا بزينتها.

والحق سبحانه هو القائل :

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا [٢] (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا [٣] (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا [٤] (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا

---

(١) حصيداً : محصودة مقطوعة لا شىء فيها ، قال أبو عبيدة : الحصيد : المستأصل . [تفسير القرطبى ٤ / ٣٢٥٤].

(٢) قال الحسن البصرى : القضب : العلف الذى تأكله الدواب [تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٧٢ - بتصرف].

(٣) حدائق غُلباً ، أى : بساتين . وقيل : هى نخل غلاظ كرام . وقيل : هى الشجر الذى يُستظل به . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٧٢].

(٤) قال ابن عباس : الأب ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس . وقيل : هو الحشيش للبهائم وقيل : الأب الكلأ . [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٢ ، ٤٧٣].

جاءت الصاخة (١) (٣٣) يوم يفر المرء من أخيه (٣٤) وأمه وأبيه (٣٥) وصاحبته وبنيه (٣٦) لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (٣٧) ﴾. [عبس]

إذن: فالدنيا بكل جمالها الذى تراه إنما تذوى (٢) ، وما تراه من بديع ألوانها إنما يذبل ، ومهما ازدانت الدنيا فهى إلى زوال ، فإياك أن تبغى ؛ لأن البغى فيه متاع الدنيا ، والدنيا كلها إلى زوال ؛ كزوال الروض التى ينزل عليها المطر ؛ فتنبت الأرض الأزهار ، ثم يذوى كل ذلك.

وقد قال الحق سبحانه:

﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين (١٧) ولا يستثنون (١٨) فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون (١٩) فأصبحت كالصريم (٣) (٢٠) ﴾. [القلم]

إذن: فالدنيا بهذا الشكل وعلى هذا الحال.

---

(١) الصاخة: قال ابن عباس: هى اسم من أسماء يوم القيامة عظّمه الله وحذّر منه. وقال البغوى: الصاخة يعنى: صيحة يوم القيامة ، سُمِّيت بذلك ؛ لأنها تصخ الأسماع ، أى: تبالغ فى إسماعها حتى تكاد تصمها . [تفسير ابن كثير: ٤ / ٤٧٣].

(٢) تذوى: تذبل . ذوى النبات: أصابه الحر والعطش فذبل .وضعف. وذوى عود النبات: يبس . [اللسان: مادة (ذوى)].

(٣) هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجميلة ، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ، ولهذا قال تعالى: ﴿إنا بلوناهم﴾ أى: اختبرناهم ﴿كما بلونا أصحاب الجنة﴾ وهى البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين﴾ أى: حلفوا فيما بينهم ليَجُدُّن ثمرها (يجمعونه) ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ؛ ليتوفر ثمرها عليهم ، ولا يتصدقوا منه بشىء. ﴿ولا يستثنون﴾ أى: فيما حلفوا به ، ولهذا حنّثهم الله فى أيمانهم ، فقال تعالى: ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون﴾ أى: أصابتها آفة سماوية ﴿فأصبحت كالصريم﴾ قال ابن عباس: أى: كالليل الأسود. وقال الثورى والسدى: أى: هشيماً يبساً. [تفسير ابن كثير: ٤ / ٤٠٦].

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ (٢٤) ﴾ [يونس]

والأرض تتزين بأمر ربها ، والحق سبحانه ينسب الإدراكات إلى ما لا نعرف أن له عقلاً أو إرادة. ألم يقل الحق سبحانه فى قصة العبد الصالح : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ [1] .. (٧٧) ﴾. [الكهف]

فهل يملك الجدار إرادة أن ينقضَّ ؟ ولو حققنا الأمر جيداً ؛ لوجدنا أن الحق سبحانه جعل لكل كائن فى الوجود حياة تناسبه ، وله إرادة تناسبه ، وله انفعال يناسبه. وقد ضرب الحق سبحانه لنا فى ذلك صوراً شتّى، فنجد أن الشىء الذى يعزُّ على عقولنا أن تفهمه يبرز لنا ببيان من الله تعالى.

ومثال هذا: معرفة الهدهد فى قصة سليمان عليه السلام بالتوحيد ، وكيف أخبر هذا الهدهد سيدنا سليمان عليه السلام بحكاية مملكة سبأ حيث يسجد الناس هناك للشمس من دون الله ، فكأن الهدهد قد علم مَنْ يستحق السجود له إذ قال : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ [2] فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٥) ﴾. [النمل]

ومن كان يظن أن الهدهد ، وهو طائر ، يكون على هذه البصيرة بالعقائد على أصفى ما تكون؟ لأن الحق سبحانه أراد أن يبيّن لنا أن هذا

---

(١) يريد أن ينقض : الانقضاض السقوط بسرعة وإضافة إرادة الانقضاض إلى الجدار مجاز عن قرب سقوطه ، وذلك على التشبيه بحال منْ يريد الفعل ، وفى كتاب الله قوله : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ .. (١٥٤) ﴾ [الأعراف] وقوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ .. (٢١) ﴾ [محمد] [تفسير سورة الكهف للشيخ محمد محمد المدنى - بتصرف] .

(٢) الخبء: ما خُبِىء . والخبء الذى في السماوات هو المطر ، والخبء الذى فى الأرض هو النبات . وقيل : الخبء كل ما غاب ، فيكون المعنى : يعلم الغيب فى السماوات والأرض . [اللسان : مادة (خبأ)] .

الطائر لا هوى له يفسد عقيدته ، وأن أهواءنا هي التي تفسد العقائد ، ومَنْ أعطاه الله سبحانه البدائل هو الذي يفسد الاختيار ما دام لا يحرس الاختيار بالإيمان ، وأن يختار في ضوء منهج الله تعالى.

ونحن نرى أن ما دون الإنسان من طائر أو حيوان لا يفسد شيئاً ؛ لأن غريزته تقوده ، فلا نجد حيواناً يأكل فوق طاقته ، لكننا نجد إنساناً يصيب نفسه بالتخمة [1] ، ولا نجد حماراً يقفز فوق قناة من الماء لا يقدر عليها ، بل نراه وهو يتراجع عنها ، ولكنا نجد إنساناً يشمر عن ساعديه [2] ؛ ليقفز فوق قناة مياه ؛ فيقع فيها [3] .

إذن: فنحن بأهوائنا التي تسيطر على غرائزنا نوقع أنفسنا فيما يضرنا ، ما لم نحرس أنفسنا بمنهج الله سبحانه وتعالى. ونجد في مثال الهدهد صفاءً عقدياً في التوحيد كأصفى ما يكون المتصوِّفة ، ويأتي بما يهمه ﴿ **أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ لأن الخبء هو رزق الهدهد ، فهو لا يأكل من الشيء الظاهر على سطح الأرض ، بل يضرب بمنقاره الأرض ؛ ليأتي لنفسه بما يطعمه .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً آخر بالنملة التي قالت: ﴿ **يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَـٰكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨)** ﴾ .
[النمل]

---

(١) التخمة: الذي يصيب الإنسان من الطعام إذا استوخمه أي: استثقله. وقد تطلق «التخمة» على كثرة الطعام والمبالغة في الأكل والشرب حتى يثقل على الجسم هضم الطعام ؛ فيصاب الإنسان بالوخم والثقل وعدم القدرة على الحركة. [اللسان: مادة وخم].

(٢) الساعد: ملتقى الزندين من عند المرفق إلى الرسغ. والساعد: ساعد الذراع ، وهو ما بين الزندين والمرفق ، سُمّي ساعداً لمساعدته الكفّ. وجمع الساعد: سواعد. [اللسان: مادة (سعد)] .

(٣) وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَـٰنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب] .

وهذه دقة عدالة من هذه النملة ، فإنها لم تقل: إن سليمان وجنوده سيحطمون أخواتها من النمل ظلمًا لهم ، بل قالت : ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ لأنكم لا تظهرون تحت أرجلهم.

إذن: كل كائن في الوجود له حياة تناسبه ، ولكن الآفة أننا نريد أن نتصور الحياة في كل كائن ، كتصورها في الكائن الأعلى وهو الإنسان.

ولا بد لنا أن نعلم أن النبات له حياة تناسبه ، والحيوان له حياة تناسبه ، والجماد له حياة تناسبه ، وكل شيء في الحياة له لون من الحياة المناسبة له.

وقد أوضحنا من قبل أن الحق سبحانه قد قال: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ .. (٤٢)﴾ . [الأنفال]

والهلاك مقابل للحياة ، والحياة مقابلة للموت ، والهلاك يساوي الموت. والحق سبحانه يصور الحالة يوم القيامة فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ..(٨٨)﴾ . [القصص]

إذن: فالجماد هالك ، ولكنه يتمتع بلون من الحياة لا نعرفه ، وكذلك كل كائن له حياة تناسبه ، والآفة أن الإنسان يريد أن يعرِّف الحياة التي في الجماد كالحياة في الإنسان.

وانظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله الحق : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا(٢٤)﴾ [يونس]

وقد جاء هذا القول من قبل أن يتقدم العلم ويثبت أن الأرض تشبه الكرة ، وأنها تدور ، وأن كل ليل يقابله نهار ، وكذلك جاء قول الحق

سبحانه: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى .. (٩٨) ﴾. [الأعراف]

إذن: فأمر الله سبحانه يتحقق حين يشاء، وهو أمر واحد عند من يكونون في ضحى أو في ليل.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا [1] كَأَن لَّمْ تَغْنَ [2] بِالْأَمْسِ (٢٤) ﴾. [يونس]

أي: كأنها لم يكن لها وجود.

وينهي الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾ [يونس]

فإذا كانت الدنيا كلها مثل عملية الزرع في الأرض الذي ينمو ويزدهر ويزدان، ثم ينتهي، ألا يجب أن نتنبه إلى أن كل زخرف إلى زوال؛ وعلينا ألا نفتتن بزينة الدنيا ومتاعها في شيء، وأن نحرص على ألا نبغي في الأرض؛ لأن البغي متاع الحياة الدنيا، وهي إلى زوال[3].

ونجد القرآن يأتي بذكر التفصيل للآيات، ويتبع ذلك بأن هذا التفصيل لقوم «يتفكرون»، أو «يتذكرون»، أو «يعقلون»، أو «يتدبرون».

وكل هذه عمليات تتناول المعلوم الواحد في مراحل متعددة، فالتعقُّل:

(١) الحصيد والحصد: الزرع المحصود بعد ما يحصد، والمراد بالحصيد هنا: تشبيه وتصوير إهلاك الله للأرض في نهاية الدنيا بما يحدث عند حصد النبات من اقتلاعه وتقطيعه. [اللسان: مادة (حصد) - بتصرف].

(٢) ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾ أي: لم تكن عامرة، والمغاني في اللغة: المنازل التي يعمرها الناس. وقال قتادة: كأن لم تنعم. وقرأ قتادة (يغن) بالياء، يذهب به إلى الزخرف، يعني: فكما يهلك الزرع هكذا، كذلك الدنيا. [تفسير القرطبي: ٤/ ٣٢٥٤].

(٣) يقول الله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن].

هو أن تأتى بالمقدمات ؛ لتستنبط ولترى إلى أى نتائج تصل . والتذكُّر يعنى: ألا تنسى وألا تغفل عن الأمر الهام . والتفكُّر : هو أن تُعْمل الفكر . والفارق بين الفكر والعقل هو أن العقل أداة التفكُّر . والتدبُّر [1] : هو ألا تنظر إلى ظواهر الأشياء ، بل إلى المعطيات الخفية فى أى أمر .

والحق سبحانه يقول: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾ . [النساء]

أى: اجعل بصيرتك تمحّص البدايات والنهايات ؛ لتعرف أن المرجع والمصير إلى الله تعالى. والعاقل هو مَنْ يعدّ نفسه للقاء الله سبحانه ، وقد يرهق نفسه فى الدنيا الفانية ؛ ليستريح فى الآخرة.

وإذا نظرنا إلى الدنيا والآخرة من خلال معادلة تجارية ، سنجد أن الآخرة لا بد وأن ترجح كفتها ؛ لأن عمر الإنسان فى الدنيا مظنون ، ولا يعرف فرد هل يحيا فى الدنيا عاماً أو عشرة أو سبعين أو مائة عام.

ومهما طالت الدنيا مع كل الخَلْق فهى منتهية ، والنعيم فيها على قدر إمكاناتك البشرية وعلى قدر تصورك للنعيم ، أما الآخرة فهى بلا نهاية ، وأمر الإنسان فيها متيقَّن ، والنعيم فيها على قدر عطاءات الله تعالى ومراده سبحانه للنعيم . فإن قارنت هذا بذاك وقارنت الدنيا بالآخرة لرجحتْ كفّة الآخرة.

لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ [2] لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ . [العنكبوت]

---

(١) التدبر فى الأمر . التفكر فيه وأن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته ، وفلان ما يدرى قبال الأمر من دباره ، أى: أوله من آخره. ويقال: إن فلاناً لو استقبل من أمره ما استدبره لهُدِىَ لوجهة أمره ، أى: لو علم فى بدء أمره ما علمه فى آخره لاسترشد لأمره . قال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ [ص] . [اللسان: مادة (دبر) - بتصرف].

(٢) ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ .. (٦٤) ﴾ [العنكبوت] أى: هى الحياة الدائمة التى لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبد الآباد . [تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٢١].

وفى قوله سبحانه: ﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ . مبالغة فى كونها حياة لا فناء فيها. فاتبع منهج الله سبحانه ؛ ليأخذك هذا المنهج إلى دار السلام والسلامة من الآفات. واضمن لنفسك الخروج من دار الفناء والأغيار ، وَضَعْ يدك فى يد من يدعوك إلى دار السلام.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ[1] وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

ودار السلام: هى الآخرة التى تختلف عن دار الدنيا المليئة بالمتاعب ، هذه الدنيا التى تزهو وتتزخرف ، وتنتهى إلى حطيم ؛ لذلك يدعو الله تعالى إلى دار أخرى ، هى دار السلام ؛ لأن من المنغِّصات على أهل الدنيا ، أن الواحد منهم قد يأخذ حظه جاهاً ، ومالاً ، وصحة ، وعافية ، ولكن فى ظل أرق من أمرين: الأول هو الخوف من أن يفوته هذا النعيم وهو حى ، والثانى أن يفوت هو النعيم.

أما الآخرة فالإنسان يحيا فيها فى نعيم مقيم ؛ ولذلك يقول الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ .

وهذه الآخرة لن يشاغب فيها أحدٌ الآخر ، ولن تجد من يأكل عرق غيره

---

(١) دار السلام هى الجنة ؛ لأنها دار الأمان والسلامة من كل سوء يقول الحق : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .. ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام] وسلم تأتى لمعان منها : ألقى السلام وانقاد وأذعن ، وسلمه الله : أنجاه . وسلمه الأمانة أوصلها لصاحبها ، وأداها فهى مُسلَّمة ، يقول الحق : ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا .. ﴿٧١﴾﴾ [البقرة] وأسلم قلبه : أخلص . وأسلم : دخل فى دين الإسلام ، يقول الحق : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة] القاموس القويم جـ ٢ صـ ٣٢٥